طرائف من العصر المملوكي :

الشكوى في شعر ابن نباتة

للأستاذ محمود رزق سليم

لا ريب أن البشرية غايتها السعادة ؛ فهي تسعى إليها أفراداً وجماعات، وتطرق كل باب يؤدي إليها، وكل سبيل تفضي نحوها. — وقد اختلف الناس — ولا يزالون مختلفين — في كنه السعادة وفي الوسائل المؤدية إليها. ولكن — ليت شعري — أيكون البؤس مظهراً من مظاهر السعادة، أو يكون وسيلة من وسائلها ؟ تساؤل، لأن النفوس مختلفة الطباع، متباينة الاتجاه. ومن الناس من يجد لذته في شقائه، وسعادته في بؤسه. إذ خلقت نفسه ذات طبيعة قلقة حائرة تنشد الهدوء، حتى إذا وجدته نفرت منه، وعاودت سعيها إليه. وتطلب الرضا، حتى إذ ظفرت به ونعمت بأسبابه، قطعت ما بينها وبينه، ثم شاقها الحنين للبحث عنه. هذه نفوس من طراز خاص توسع في آمالها ما أفسح لها الخيال، وتمضي في سبيلها ما بدا لها السعي. حتى إذا وصلت إلى أمل جددت أملا ؛ وإذا ما انتهت من سعي عاودت سعيا. لأن غايتها في السعي نفسه، لا في عاقبته. ولأن إربتها في البحث ذاته، لا في نهايته. فهي أبداً في عمل دائب وهم ناصب. وهي لقلقها الذي فطرت عليه، وحيرتها التي خلقت بها، لا تستريح إلى طريق في الحياة ممهدة معبدة، لا أمت فيها ولا عوج. ولا تطيب لها السبل، إذا امتلأت جنباتها بالورود والأزاهير. بل تفضل منها المعقدة الملتوية المجدبة، على السهلة المستقيمة الخصبة. وتختار المشقة على اليسر، وتؤثر التعب على الراحة. كل ذلك لا ليقال : عجيبة بلغت السيادة بجدها وجهادها، ولا ليقال : فريدة حازت السعادة بكدها وجلادها، بل لكي تلائم بين هذه المشقات وبين طبيعتها، وما فيها من قلق وحيرة. ولكي تجد فيها من الأسباب ما ترتل عليه شكواها وتوقع أنينها. فهي مطبوعة على حب الشكوى، تجيدها وتجد فيها راحتها، ومفطورة على

روسي على أساس هذه المحادثات اتفاقاً حكيا جنت منه إيطاليا ثمرات عديدة حتى جاءت الحكومة الفاشية فضربت به عرض الحائط، لأنها وجدت في المستعمرتين ميداناً واسعاً لاستغلال منشوراتها وتقاريرها عن انتصاراتها الحربية التي يضحك المتأمل عبث القيام بها بجانب ما تكلفه من التكاليف والخسائر.

ولم يكن منتظراً بقاء مثل هذه المحادثات في طي الخفاء ونحن في جو استانبول لأنها سرعان ما تنتقل إلى علم أنصار مصطفى كمال وقد يعملون على إحباطها، ولذلك رأيت من المصلحة إبلاغه منها فجاءني منه الرد الآتي :

« كان علة شقائنا وسقوطنا محاولتنا المحافظة على سيادة تركيا على الأقطار العربية فنحن لا نريد أن نسمع من الآن شيئاً من ذلك. والسنوسي حر في أن يفاوضكم على ما يرغب وأن تتفقوا معه على ما تريدون ».

ولقد زادني هذا الرد القاطع المقرون بالصراحة اعتقاداً في أننا على وشك أن نلمس عصر إحياء جديد في النفس التركية — ووصل مصطفى كمال إلى أوج ما ينشد من المجد والسلطة فلم يغير من خطته هذه — وهو موقف يستدعي الإعجاب والتقدير وهو نادر في نفس الوقت.

لقد عرف من البداية أن الدولة العثمانية بلاد متأخرة تقع بين أوربا وآسيا، وأن تركيا إذا اقتصرت على توجيه قواها إلى استغلال آسيا الصغرى أمكنها تحت نظامها الجديد أن تصير عامل حضارة وتقدم، وقد يأتي يوم تلعب فيه دوراً مهماً تجاه آسيا الوسطى.

وهنا يظهر عمله الإنشائي الحقيقي الذي أتمه بحنكة وشجاعة وإن بقي مجهولا لدى الكثيرين بجانب ما يتحدث الناس به من إصلاحاته الثانوية في تغيير الحروف وفرض القبعة.

وإنه لمن الشرف له أن يشاد بعمله هذا وأن يقال إن هذا الزعيم وصل من بين الدكتاتوريين أن يجني ثمار نجاحه بحق، لأنه أقدم على ما لم يقدم عليه غيره، وعرف كيف ينظر شزراً إلى مخلفات سياسة المجد الكاذب التي كانت تتبعها الحكومة العثمانية السابقة والتي لم يكن لها غرض إلا ما تحدثه من الضجيج الفارغ والضوضاء الكاذبة ...

أحمد رمزي

الأنين تحبه ، وتستشعر خلاله طمأنينتها . وهي لا تستطيع الحد فلا تجار به ، ولا تستطيع الرضا فلا تهدأ إليه . ولو راحت تحمد وترضى ، ما استطاعت ذلك إلا متشكانة مجهودة ، ومتعبة مكدودة .

هذه نفوس من طراز خاص كما أشرنا . وتأبى الأقدار إلا أن تهيء لها كل العوامل التي تنضج فيها هذا الفن من فنون الحياة فتلاقي في طريقها الأشواك ، وتبث الشراك ، حتى يكثر عثارها ، ويتكرر نفارها . وهي — في الحق — راضية في قرارتها ، هانئة في أعماقها ؛ لأن ما تصنعه لها الأقدار يتلاءم مع سجيتها ، وينسجم مع طبيعتها . وهكذا تبدو بائسة يكاد يأكلها البؤس ، وتعسة يكاد يطويها النحس . فتفر بقلقها من دار إلى دار ، ومن سبيل إلى أخرى . تنشد ما تزعم من سعادة وعزاء ، شاكية آنة ، بأنة حانة . حتى إذا ما ظفرت نفرت وإذا وصلت فصلت . ولم تستطب هذا الاستقرار ، ولا ما هيأه لها من سعادة ، ولا مادعاها إليه من لهج بالحمد والثناء .

تجاذبنا هذه الخواطر كلما جلسنا إلى ديوان ابن نباتة الشاعر المصري الكبير ، لنقرأ طرفاً من أبياته ؛ إذ نرى فيها شاعراً بادي القلق ظاهر البؤس ، كثير الشكاية . وتلك سمة واضحة في شعره ، وفي مراحل حياته .

كان جمال الدين بن نباتة «٦٨٦ هـ — ٧٦٨هـ» أمير شعراء مصر في جيله غير منازع . وهب الله له نفساً أدبية خصيبة ، وخيالا واسعاً رحيباً ، ولساناً طليا ، ومنطقاً مصوراً بارعاً . فهام لذلك في أودية الشعر ، وطرق الجم من فنونه . وحق له أن يفخر بقوله :

فما الدر إلا دون نظم أصوغه ... وما القصر إلا دون بيت أشيده

ويقول :

من مبلغ العرب عن شعري ودولته ... أن ابن عباد باق وابن زيدونا

ظن ابن نباتة ، وقد طاع له من القول عصيه ، ودان له من الشعر أبيه ، أن من حقه على الزمن أن يسعده لا يجحده ، وأن ينعمه لا يشقيه ، وأن يهيء له من أسباب الرضا ما تقر له عينه ، وتطيب به نفسه ، حتى يطلق جهده ، لفنه وحده لا تشغله عنه شواغل الحياة ، ولا تقعده دونه هموم الرزق .

ظن ابن نباتة ذلك ، ولم يسلم أن الزمان قد استحال ، وأن الدهر قد تغير ، وأن دولا ذهبت ، وجاءت على أنقاضها دول . وأن الملوك قد استعجمت بل والشعوب ، وذهبت أيام الرواج للشعر ، وطويت بسط الإنشاد ، وانفض سامره ، وتفنى عهد التكسب ، وقبضت يد العطاء عن الشعراء ، وأقفلت في وجوههم جنات النعيم .

هذه حقيقة فطن لها أنداده من شعراء عصره فلووا جيدهم وانصرفوا عن التكسب بالشعر إلى التكسب بغيره . فكان منهم العالم الفقيه ، أو الكاتب المنشىء ، أو التاجر المتنقل ، أو المحترف الصانع . والتمسوا الرزق بالوظيفة في القضاء أو الكتابة في الدواوين ، أو التجارة والصناعة . وروحوا عن أنفسهم بين الفينة والفينة بأبيات من الشعر ينظمونها في حاجاتهم النفسية . ولم يسلموا مصيرهم إلى يد الشعر ، يستمطر لهم الرزق من الملوك وأشباه الملوك ، كما كان أسلافهم في عهد بني أمية ، وعهد بني العباس — حتى بدا لبعضهم أن يحمل على صناعة الشعر ، ويفضل عليها صناعته الدنيا التي يقتات منها . ويطلق لذلك فيحسن التعليل ، ويوري فيجيد التورية . وقد قال أبو الحسين الجزار «٦٧٩هـ» :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ... ـت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني ... وبالشعر كنت أرجو الكلابا

أما ابن نباتة ، فقد صمم على أن يعيش لفنه ، لا تلهيه عنه تجارة أو بيع — ظانا أنه سيدر عليه من الذهب النضار ، ومن الفضة النثار . فانساق إلى مهواة التكسب حتى أدركته حرفة الأدب ، ولحقه كساد الشعر وبواره . ولم يجن من وراء ذلك إلا القلق والبؤس وصار كما يقول عن نفسه وهو بدمشق ، متذكراً ما مضى من أيامه :

شهور وصل كساعات قد انقرضت ... بين أحب وأعوام كأيام
ولت كأني منها كنت في سنة ... ثم انبرت لي أيام كأعوام
متقلقا بيد الأيام مضطربا ... كأنما استقسمت مني بأزلام
قد حرمت حالتي طيب الحياة بها ... كأن طيب حياتي طيب إحرام
هي المقادر لا تنفك مقدمة ... وللمحيا خطرات ذات إحجام

وهذه حالة لا مفر منها ، مادام قد طرق أبوابها ، وسلك رحابها . وماظنك بمتكسب فى غير سوق ، وسادر دون وثوق . يترك بابا ليقرع بابا ، ويهجر مقصوداً ليمم شطر مقصود . هذا يعطيه وذاك يمنعه ، وهذا يهب له وذاك يدفعه . وهو ما بين هذا وذاك ساخط على من حرمه وقلاه ، شاك فيمن منحه وأعطاه . هذه — لعمرك — حياة المتبطل الكسول الذى لم يلبس لبوس عصره ، ولم يرتد مسوح زمانه . يقول :

يا سائلى بدمشق عن أحوالى | قف واستمع عن سيرة البطال
ودع استماع تنزل وتمشق | ماذا زمان الشق والأغزال
طول النهار لباب ذا من باب ذا | أسعى لعمر أبيك سعى ظلال

ويقول منها :

أرى الزمان يمنينى ولاية | أحمى بها وجهى من التسآل
زحل يقارن حاجبى وقد انحنى | ظهرى من الهم انحناء الدال

لم تهتم المقادير بإجابة ابن نباتة إلى سؤله ، بل ادخرت له فى جعابها أقسى ما ادخرت لإنسان . وحفظت له فى قرابها أحد ما أرهفته لامرىء . وهى تعلم — بلا ريب — خبيآت نفسه ومغيبات حسه . فادخرت له ما ادخرت ، وأرهفت ما أرهفت للاءمته لها . وبذلك وحده ، ينبغ أدبه ، وينبغ فنه ، ويصبح شاعر البؤس والشكوى . وما كل بائس يلتئم مع بؤسه فى أعماق نفسه . أما ابن نباتة فقد نعم بهذا البؤس ، لأن نفسه وجدت فيه معيناً لشكاياتها حتى خلقت لتجيدها وتحسن القول فيها . لهذا جاء شعره ترجماناً صادقاً عن مطوى نفسه ، ولساناً معبراً عن مذخور حسه . وسارت الشكوى فى خلال أبياته ، على اختلاف منازعها ، اللون الأصيل ، واللحن المشترك ، الذى لا تتم ألوان القصيدة أو أنغامها إلا به . يقول وقد عجل إليه المشيب :

عجبت خلتى لو خط مشيبى | فى أوان الصبا وغير عجيب
من يعم فى بحار هم يظهر | زبد فوق فرعه الغربيب
من يحارب حوادث الدهر يخلق | لون فوديه فى غبار الحروب
أى فرع يجون على مثت الأ | يام يبقى وأى غصن رطيب
لو هى ماء مطلق من الســنين لأفنته | مهجتى بلهيب

ونعتقد أن ابن نباتة ، كان فى مقدوره أن ينجو بنفسه بعيداً عن نحسه ، وأن يجنبها مشاق الحياة ووعثاء العيش بالارتزاق بإحدى الطرق المألوفة فى زمانه ، وأيسرها عليه الكتابة فى ديوان الإنشاء . ونعتقد أنه لو سعى جاداً إلى الوظيفة لظفر بها . فهو لا يقل باعاً ولا يقصر ذراعا عن رؤساء هذا الديوان ، إن لم يكن فى الإنشاء أحفل منهم وأفضل . ولا ندرى ما نعلل به حرمانه من وظائف الديوان — وما خلقت إلا لأمثاله — إلا وثوقه من شعره واعتقاده أنه سيكون سبيله إلى الغنى والثراء والعيش الكريم ، وإلا خوفه مما فى الديوان من قيود ونظام لا تتلاءم مع قلقه وحبه للتنقل . ولعل استحواذ جلة من أدباء العصر — أمثال العلاء بن الأثير ، وأبناء فضل الله العمرى — على قلب الناصر سلطان مصر حينذاك ، كان فى جملة أسباب حرمانه ، وتأبى وظائف الديوان عليه .

على أن ابن نباتة كانت لأبيه ثروة ما بدمشق وبمصر ، وكان يمينه بشىء منها بين الآن والآن . فلما مات أبوه بدد ما ورث فى مسارح اللهو ومطارح الهوى ومغامرات الشباب ، وأنفق وأسرف ، وبذر وأتلف ، كأنما وعده القدر أن يهيىء له الأمل الجديد فى المستقبل السعيد . ولكن القدر ضحك منه ملء شدقيه وأسلمه للحاجة تأزمه ، وللفاقة لا ترحمه .

هذه أمور كان لها أثر فى ابتئاسه وشكواه . ويأبى الدهر إلا أن يضاعف له فى هذه الأسباب كلما تراخت الأيام وتطاولت عليه الليالى .

فقد ابتلى بالزواج الباكر . والزواج الباكر نعمة وعصمة ، لولا مسئولياته الضخمة وأعباؤه الثقال . ولو كان ابن نباتة فى بحبوحة من العيش ، وسعة من النعمة ، لما أرهقه الزواج وآده . وقد كان شاعراً . والشاعر تطن الأحداث فى دنياه الباطنة طنيناً مضاعفاً . وكانت أوتار نفسه تجيد ألحان الشكوى ، فوجدت فى أحداثه ما يحسن التوقيع عليها .

لقد ولد له نحو ستة عشر وليداً . والأبناء عزة وقوة وزينة ، إلا مع الفاقة ، فإنهم ذلة ومحنة ومذمة ... هكذا جرى العرف بين الناس . يقول ابن نباتة :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب | أقضى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمس حول أم | فوا حرباه من خمس وست

ويقول :

كنت في الشعر جواداً ... يحرز الســـبق بلمحه
فتنـــاني الدهر والأو ... لاد لا أملك نفحه
كل ابن لي وبنت ... كشكال لي وسبحه
وزناد القول لا يســـمح في وجهي بقدحه

وتأبى الأقدار مرة أخرى إلا أن تتخذ من هؤلاء الأبناء هدفاً تقذفه فيه وتصيبه منه. فقد كان أبناؤه يموتون واحداً إثر واحد إذا بلغوا الثامنة أو نحوها. فتكررت فجيعته في كل واحد منهم يوم ميلاده ويوم وفاته ... بكاهم وأودع في رثائهم ما في قلب الأب من وله ولوعة، وما في صدره من زفرة، وفي عينه من دمعة ورثاء الأبناء من أمر ضروب الشكوى. يقول الشاعر في رثاء ولده عبد الرحيم.

أسكنت قلبي لحدك ... لا خير في العيش بعدك
يســـيل أحمر دمعي ... لما تذكرت خدك
وقدّ بالهم قلـــبي ... لما تذكرت قدّك
يا سائل الدمع إيه ... فما أجـــوّز ردك
أقصــــدتني يا زماني ... كأنني كنت قصدك
وكان ما خفت منه ... فاجهد الآن جهدك ... الخ

نبا بابن نباتة المقام بمصر، فنزح إلى دمشق ولقي وزراءها أبناء فضل الله العمري، ووجد من لدنهم شيئاً من الخير والبر أطلق لسانه مادحاً مشيداً بذكرهم، حتى قال :

من مبـــلغ الأهلين عني أنني ... بدمشق عدت لطيب عيشي الأرغد
وأمنت من نار الخطوب ولفحها ... لما لجأت إلى الجناب الأحمدي

ويقول شهاب الدين بن فضل الله :

نظرت أبا العباس نظرة بائس ... لحال امرئ كاد الزمان يبيده
فأحييته بعد الردى وألفته ... وقد طال من تحت التراب هموده

ولكننا لا ندري بالضبط ما الذي نفره من دمشـق فزايلها إلى حماة، إلا ما كان في نفسه وطبيعته من حب التنقل، وكراهة الاستقرار. ولعل أريحية المؤيد صاحب حماة، جاذبته عصا تسياره وحل أسفاره. وهناك في حماة وجد طمأنينة وبلهنية، ورفاهة وثنيا، وصحبة كريمة. وظفر منه المؤيد وابنه الأفضل، لقاء ذلك، بأعطر ما تطمع فيه الملوك من القصيد. قال يذكر لقاء المؤيد له ومدحه :

زمن الأنس قائم بالتهاني ... ونوال الملك المؤيد يسري
ملك باهر المكارم يروي ... وجه لقياه عن عطاء وبشر
زرت أبوابه فقرب شخصي ... وعفا عسرتي ونوه ذكري
ومحا لي من المكارم نحواً ... صانني عن لقاء زيد وعمرو الخ

غير أن الزمان تجهم له في حماة. ولعل ذلك بسبب وفاة المؤيد ثم زوال الأفضل، فعاد إلى دمشق يطرق أبواب وزرائها مرة أخرى، فأدخله ابن فضل الله في ديوان الرسائل. وهكذا نال في شفق حياته ما حرمه وعز عليه في ضحاها. وضج لسانه بشكر ابن فضل حيث يقول :

بلغتني يا ابن فضل الله مطّلباً ... لم أرجه من بني الدنيا ولم أخل
وقد صبوت لديوان الرسائل في ... على ادكارك لا كتبي ولا رسلي

غير أنه ابتلى حينذاك بتأخر مرتبه، وانقطاع هبات علاء الدين بن فضل الله وتغير قلبه عليه. وكان ذلك مثاراً لشكاية ابن نباتة فمدح علاء الدين مدحاً امتزج فيه العتاب واللوم، والاعتذار والشكوى، والأمل والرجاء. فمن ذلك قوله :

أمولاي قد غنى بمدحي لك الورى ... وسارت به الركبان في السهل والوعر

إلى أن قال :

على أن عندي كأس شكوى أديرها ... على السمع ممزوجاً بمدحي النثر
أيكسر حالي بالجفاء وطالما ... تعودت من نعماك عاطفة الجبر
ويدفعني عن قوت يومي معشر ... وأنت عليهم نافذ النهي والأمر
ولو كان ذنب لاعترفت به ولا ... تحيلت في عذر ولا جئت من فقر

ويقول له :

يا صاحب القبل من لفـــظ وفضل ملا ... هل أنت مصغ لما تمليه أحـــوالي
مالت يد الدهر بي وقد بليت ... أضعاف ما بليت بالهم أقوالي

وقد تكررت هذه المعاني منه في أبيات كثيرة. ومما زاد في

آلامه حينذاك أن اشتد به الحنين والشوق إلى بقية أبنائه عن تركهم بمصر ، وكأنما أبقاهم بها وسيلة ميسورة لقلقه وهمه وشكواه . يقول :

صب بمصر حيث أولاده ... بالشام يذرى الدمع مصبوبا
ذو كبد حرى وهم بعضها ... فالكل يشكو الشوق ألهوبا

ويقول :

يا ساكني مصر تبت للفراق يد ... قد صيرت بعدكم حزنى أبا لهب

ويقول فى سياق مرثيته لتقى السبكى يتشوق إلى مصر ويصف قلبه الموزع :

من لى بمصر التى ضمتك ، تجمعنا ... ولو بطون الثرى فيها فيا طربى
ما أعجب الحال ، لى قلب بمصر وفى ... دمشق جسمى ، ودمع العين فى حلب

وتنتابه ذكرى أيامه الماضية وما جنت فيه من لذة ومتاع ، والذكرى ضرب آخر من الشكوى ، فيصف شعوره فى أبيات موجعة حيث يقول :

رعى الله دهراً كنت فارس لهوه ... أروح إلى وصل الأحبة أو أغدو
جوادى من الكاسات فى حلبة المنا ... كميت ، وإلا من صدور النواهد

إلى قوله :

زمان تولى بالشبيبة وانقضى ... وفى القلب منه من حاجته بعد

عاد ابن نباتة إلى مصر بعد رحلة طويلة غير موفقة ، إلا فى فترات متفرقة . فلقى من الناصر حسن سلطانها الجديد شيئاً من العطف شكره عليه . ولكن كانت لا تزال جراح قلبه ناغلة ، وعبارات الشكوى على شفتيه حيث يقول :

قضيت العمر مداحا ... وهذا يا أخى الحال
فقير الوجه والكف ... فلا جاه ولا مال

آمن ابن نباتة أخيراً بالحظ إيمان المضطر ، وزهد زهد المغلوب . يقول :

هى الحظوظ فمن منها بما وهبت ... ولا تقل عالياً عزى ولا دونا

ويقول :

متمنى الدنيا جنى نتزهد ... ت ولكن تزهد المغلوب

ويلتمس لكساد أدبه المعاذير ، فيقول :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا ... وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

والإيمان بالحظ قد يكون مظهراً من مظاهر اليأس ، ودليلا على القلق والبؤس ، إذ لا يصل المرء إلى حظيرته إلا بعد مدافعة ومعاناة ، وأمل وإخفاق . آمن ابن نباتة بالحظ ولكن إيمان البرم به الساخط عليه ، الذى عالجه فلم ينجح علاجه ، وأوقد له قلبا سراجه . آمن به إيمان المهزوم المستسلم ، وفى نفسه ثورة عليه مكبوتة .

غير أن هذا الحظ الذى تجنى عليه ، والقدر الذى عبث به ، قد أنضجا فى شعره فن الشكوى . وكم لهذا الفن بين الناس من عشاق !

(حلوان) محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

فى أصــــول الأدب

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب فى الأدب والنقد ، يتميز بالبحث والعمق والتحليل الدقيق والرأى المبتكر .

من موضوعاته : الأدب وحظ العرب من تاريخه ، العوامل المؤثرة فى الأدب ، النقد عند العرب وأسباب ضعفهم فيه ، تاريخ حياة ألف ليلة وليلة ، أثر الثقافة العربية فى العلم والعالم ، الرواية المسرحية واللغة و تاريخها وقواعدها وأساليبها وكل ما يتصل بها موجز بحث طريف يبلغ نصف الكتاب .

طبعة جديدة مزيدة فى ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط وثمنه خمسة وعشرون قرشاً